# ضد التطبيع الثقافي

د. عبد العظيم انيس

اخترت من الزوايا التي يمكن ان اتكلم فيها في هذا الموضوع زاويتين. أولهما هي تطبيعة المراحل التي مرّت بها قضية التطبيع الثقافي. والثانية هي التنبيه الى دور الولايات المتحدة بالذات في قضية التطبيع.

فيما يتعلق بالنقطة الأولى أود أن اعبّر عن قناعتي بأن التطبيع الثقافي بين مصر واسرائيل قد اجتاز ثلاث مراحل، لكل مرحلة سماتها وحساباتها. ومن المفيد أن نفكر في هذا ونحن نضع خططنا لمقاومة هذا التطبيع. المرحلة الأولى بدأت مع توقيع المعاهدة المصرية الاسرائيلية، او ربما بدأت مع زيارة السادات للقدس وانتهت بحادث المنصة. وهذه المرحلة تميزت بأمال عريضة للاسرائيليين والأمريكيين في غزو ثقافي واسع النطاق لشعب مصر يستهدف فرض المضمون الصهيوني في الفكر على ضمائر المصريين ووجدانهم وسط حملة جهنمية في وسائل الأعلام المصرية والمسؤولين على الفكر القومي العربي وعلى عروبة مصر، وبل حتى على الشعب الفلسطيني باعتباره شعباً باع أرضه! وبطبيعة الحال على كل الانجازات العظيمة للمرحلة الناصرية باعتبارها سراباً خادعاً ووهماً وتضليلاً. حتى السدّ العالي لم يسلم من الهجوم!

في هذه المرحلة، كان الرئيس السابق انور السادات يقف على رأس السلطة بكل نزقه وغروره النفسي، يظن أنه قادر أن يفعل في مصر ما يشاء، أو ما يشاء الصهاينة والأميركيون بمعنى أدقّ، ولا يضع أي اعتبار لتوجهات الرأي العام في مصر. وكانت تلك هي المرحلة التي تميزت بزحف اساتذة الجامعات والأكاديميين الصهاينة على جامعاتنا ومراكز بحوثنا، وهي فترة مؤتمر «ووترجيت» للطب النفسي (يناير سنة ١٩٨٠)، وفترة تعديل مناهج وكتب المرحلة الابتدائية لكي تتسق مع متطلبات المرحلة الجديدة، وهي فترة زيارات يائيل ديان (اغسطس سنة ١٩٧٩)، وشمعون شامير (يوليو سنة ١٩٨٠)، وأبا ايبان (نوفمبر سنة ١٩٨٠)، ومناحم مياليسون استاذ الأدب العربي بجامعة القدس، وساسون صويخ أستاذ الأدب العربي بجامعة تل ابيب (يناير سنة ١٩٨١) للقاهرة. وهذه الفترة هي أيضاً فترة تنظيرات الدكتور شعلان أستاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر لطبيعة النزاع التاريخي بين مصر واسرائيل باعتباره مشكلة نفسية، وهي ايضاً فترة دعوة توفيق الحكيم لحياد مصر، يقصد حياد مصر في أمر نزاع بين حركة التحرر العربي واسرائيل، والبرقية المشهورة التي أرسلها الحكيم الى السادات في مايو (١٩٧٩) يقول فيها «تحية لموقفكم الراسخ أمام الأقزام. لقد أفزعهم صلح الفئتين المتحضرتين بعد اطمئنانهم لضعف مصر لتذل تحت أقدامهم. فإلى الامام نحو الكرامة والحضارة... وخطوة من المتحضرين نقابلها بخطوتين. ولن ترجع مصر مع المتخلفين الى الوراء. فالتقدم دائماً والمجد لمصر المتحضرة». انها ايضاً المرحلة التي زار فيها الدكتور حسين فوزي اسرائيل مرتين، والقى محاضرات في جامعتها ومُنِحَ الدكتوراة الفخرية من احدى هذه الجامعات، وهي المرحلة التي اصدرت فيها نقابة المعلمين قرارها بالتطبيع (مارس ١٩٨٠).

في تلك الفترة، كانت هناك جرأة في الصحف ووسائل الإعلام المصرية في نشر أنباء التطبيع الثقافي، وتميزت مجلة «اكتوبر» على وجه الخصوص في هذا المجال. وكانت هذه الجرأة مستمدة بطبيعة الحال من رعونة الحاكم القائم على أساس السلطة واستهتاره بمشاعر الرأي العام في مصر، بل وحتى بنصيحة بعض مستشاريه، ثم كانت هناك جرأة السفارة الاسرائيلية في القاهرة للاتصال بالمثقفين المصريين المرموقين... نجيب محفوظ ويوسف ادريس وأساتذة الجامعات من أمثال الدكتور محمد شعلان، والدكتور عبد العظيم رمضان والدكتور عبد العزيز نوار، وبمراكز البحوث المصرية بما في ذلك مركز الدراسات الاستراتيجية في «الأهرام» ومركز دراسات الشرق الأوسط وقد تميزت هذه المرحلة في نهاية الأمر بتفاؤل شديد من جانب الاسرائيليين والأمريكيين في مسيرة التطبيع الثقافي، بحيث بدا لهم أنهم خلال سنوات معدودة قادرون بمعونة اجهزة الإعلام المصرية وبعض الرموز الثقافية على تحويل الرأي العام المصري مئة وثمانين درجة من فكر المرحلة الناصرية، الفكر القومي المعادي للامبريالية، والصهيونية، الى الفكر الكوزموبوليتاني الغربي، والمعادي للقومية العربية والمدعي أن

الصهيوني. وان من المهم أن نلاحظ في فهمنا لهذه المرحلة أن الشخصيات الثقافية المصرية التي برزت في تلك الفترة هم بوجه عام من دعاة «التغريب» في مصر تاريخياً، وهم بشكل عام من الذين يرفضون مفهوم الغزو الثقافي ويعتبرونه وهماً. وهم على الوجه الآخر من مناصري الانفتاح الاقتصادي والارتباط بالغرب.

وكما قلنا، لقد انتهت هذه المرحلة الأولى من التطبيع الثقافي بحادث المنصة، وبدأت مرحلة ثانية استمرت حتى الغزو الاسرائيلي للبنان في يونيو سنة ١٩٨٢ او ما بعد ذلك بقليل. ومن المؤكد ان سياسة التطبيع الثقافي مع اسرائيل قد استمرت في هذه المرحلة الثانية، لكن الأسلوب اختلف، فلم تعد الصحف ووسائل الإعلام المصرية تنشر شيئاً يذكر عن وقائع التطبيع، والأجهزة الرسمية المصرية بدأت تحاول إخفاء كل ما يتعلق بسياسة التطبيع عن صحف المعارضة خصوصاً، واصبح الراغب في تتبع وقائع التطبيع مضطراً الى ملاحقة الصحف والإذاعة الاسرائيلية او الغربية بحثاً عن أنباء التطبيع وبدأ العديد من العناصر الثقافية المصرية التي برزت في المرحلة الأولى تتخذ مسلكاً اعتذارياً عما قالته وفعلته في المرحلة الأولى خصوصاً بعد غزو لبنان. ان هذه المرحلة الثانية تميزت بهجوم صحف المعارضة هجوماً عنيفاً على سياسة التطبيع وعلى رموزه المصرية.

ومن الواضح ان السلطة في مصر قد مضت في سياسة التطبيع في هذه المرحلة الجديدة وعينها على موضوع جلاء القوات الاسرائيلية في سيناء، اذا كانت لا تريد ان تعطي الاسرائيليين أي حجة لاتهام مصر بخرق المعاهدة، وبالتالي تأجيل الجلاء عن سيناء، في هذه الفترة زار إسرائيل وفد من الشباب المصري من ١٧ الى ٢٤ يناير سنة ١٩٨٢ يصحبهم ١٥ مرافقاً برئاسة جمال علاّم نائب رئيس جهاز الشباب في مصر، كما زار مصر وفد من شباب اسرائيل في فبراير سنة ١٩٨٢ رداً على زيارة الوفد المصري واشتركت اسرائيل في معرض الكتاب الدولي يناير سنة ١٩٨٢ وذهبت الفرقة القومية للفنون الشعبية وفرقة الموسيقى العربية بقيادة عبد الحليم نويرة لزيارة اسرائيل للمشاركة في مهرجان الربيع في تلّ ابيب في مايو سنة ١٩٨٢، وقد صحب الفرقتين في هذه الزيارة الدكتور يوسف سترتي نائب وزير الثقافة المصري آنذاك كما زار وزير الثقافة المصري اسرائيل في فبراير سنة ١٩٨٢، واتفق في هذه الزيارة على تبادل الفرق الموسيقية، وهي ايضاً فترة نشاط معارض الفنون التشكيلية بين مصر واسرائيل والتي برزت فيها الفنانة آمال شكري. وقد يكفي للدلالة على السرية التي احاطت بها الدولة أحداث التطبيع في هذه الفترة ان تشير الى ما جاء في مقال الأستاذ حازم هاشم في عدد المواجهة الأخير في ان القرار الوزاري الخاص لسفر فرقتي الموسيقي العربية والفنون الشعبية قد صدر باسماء مستعارة لأعضاء الفرقتين اتقاءً للمعارضة العربية، وان الصحفيين المصريين الذين ذهبوا مع الفرقتين سافروا او عادوا دون كتابة حرف واحد في صحفهم عن هذه الرحلة، وقد انتهت هذه المرحلة كما قلنا بعد غزو لبنان وسحب السفير المصري من اسرائيل وتوقفت كافة اجراءات التطبيع.

لكننا فيما يبدو اليوم على وشك بداية مرحلة ثالثة جديدة لإعادة تنشيط التطبيع الثقافي بيننا وبين اسرائيل. دليلنا الأول في ذلك هو السماح لإسرائيل بالاشتراك في معرض الكتاب الدولي في يناير سنة ١٩٨٥، مع انها كانت قد منعت في ذلك في يناير سنة ١٩٨٣ ويناير سنة ١٩٨٤، بالإضافة الى مؤشرات أخرى لا محل لتفصيلها الآن. ومعنى هذا أننا نواجه نكسة جديدة في سياسة الدولة المصرية تتناقض بشكل واضح مع سياسة الانفتاح على الدول العربية ومنظمة التحرير التي كثر الحديث عنها في الصحف المصرية في المرحلة الأخيرة.

والسؤال الطبيعي هنا: لماذا هذه الانتكاسة السياسية المصرية وتلك العودة الى اعادة تنشيط التطبيع الثقافي مع اسرائيل مع ان القوات الاسرائيلية لم تنسحب من لبنان - بل توقفت محادثات الناقورة - ولم تعد طابا الى السيادة المصرية ؟

هناك بالطبع الضغط الأمريكي على مصر لاعادة التطبيع مع اسرائيل، وعلاقة هذا الضغط بزيارة الرئيس مبارك المرتقبة لواشنطن في مارس القادم وطلبات زيادة المعونة الاقتصادية، ولكن هناك أيضاً التصور المصري - الذي لا تخفيه اجهزة الاعلام المصرية وتصريحات المسؤولين - بامكانية انتزاع تفويض للملك حسين من منظمة التحرير بالتفاوض المصري الأردني مع اسرائيل على اساس قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ومشروع ريغان واستعداد رئيس وزراء اسرائيل بيريز للتجاوب مع هذا المخطط للوصول الى شيء شبيه باتفاقية كامب دايفيد خاص بفلسطين. بمعنى أصرح فانني اتحدث هنا عن مخطط صفقة يجري الإعداد لها بين اليمين العربي من جانب وبين اسرائيل واميركا من جانب آخر تقفز على حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ودولته المستقلة.

وبالطبع فانني واحد من المقتنعين بأن أمام مثل هذا المشروع صعوبات جمة ليس في اقلها أهمية ان منظمة التحرير الفلسطينية لا هي راغبة ولا قادرة على ان تبيع مثل هذه الصفقة للشعب الفلسطيني والشعوب العربية الأخرى. لكن هذا هو المناخ للقاءات المرتقبة والمقصود بها تنشيط المفاوضات العربية الاسرائيلية من جديد. وبسبب هذا بدأت من جديد تطلّ علينا سياسة إعادة تنشيط التطبيع الثقافي مع اسرائيل.

بقيت كلمة عن الزاوية الثانية التي أشرت اليها في مستهل حديثي ، وأعني بها دور الولايات المتحدة في قضية التطبيع ، ان رأيي الذي تدعمه شواهد كثيرة هو ان المشروع الأساسي للتطبيع قد وضعت خطوطه العريضة أملاً في لقاءات مشتركة بين هيئات سياسية وثقافية واكاديمية من الاسرائيليين والأمريكيين ، كما تطوع الأميركيون عن طبيق جامعاتهم ومراكز بحوثهم ووزاراتهم بالقيام بدور تنفيذي رئيسي في عملية تنشيط التطبيع . أي أن اميركا لم تكن الشريك السياسي الكامل فحسب ، وانما كانت الشريك الثقافي الكامل ايضا . ويكفي ان اشير هنا الى سياسة البحوث العلمية المشتركة وتمويلها والمؤتمرات العلمية التي مولتها الولايات المتحدة واشتركت فيها مصر واسرائيل ، والأرصدة التي خصصتها وكالة التنمية الأمريكية (إيد) في هذا الصدد ، ومنح (السلام) التي قدمت اميركا مئات منها للطلبة والدارسين المصريين ودعوات الأساتذة المصريين . وكل هذه البرامج كانت موجهة ـ كما يعلن الأمريكيون ـ لإقلمة حوار بين المثقفين المصريين ونظرائهم في اسرائيل لتعزيز تطبيع العلاقات وفق اتفاقية السلام . كما يكفي ان اشير الى المؤتمرات التي دعت اليها اميركا وجمعت فيها بين المثقفين المصريين والاسرائيليين تحت لافتات مختلفة منها سلسلة مؤتمرات الطب النفسي التي بدأت في ووترجيت باميركا بترتيب من الجمعية الأمريكية للطب النفسي وانتهت بمؤتمر الاسكندرية مروراً بمؤتمر لوزان ، والمؤتمر الدولي لأمراض العيون ، وامراض النساء والولادة ومؤتمر الكيمياء الضوئية بالاسكندرية ، ومؤتمر المعلومات بالقاهرة الذي حضره الوفد الاسرائيلي كجزء من الوفد الأميركي ، ومؤتمر « السلام من خلال القانون » . . . الخ . وما أريد أن أنبّه اليه هنا هو أن المواجهة في ميدان الثقافة والتطبيع ليست بيننا وبين اسرائيل فحسب ، وانما بيننا وبين من يقفون مدعمين ومساندين لاسرائيل ، أعني الولايات المتحدة الخصم الرئيسي لحركة التحرر العربي المعاصرة .

ان هذا المنظور في فهم حقائق الأوضاع الحالية شديد الأهمية خصوصاً لدى شعب ما زالت اقسام واسعة منه تفرق بين اسرائيل واميركا ، ترى خطر الثقافة الصهيونية واخطار التطبيع الثقافي مع اسرائيل ولا ترى اخطار الثقافة الاستعمارية الأمريكية ومؤامرة الغزو الثقافي الأميركي مع أن وشائج القربى بين الثقافتين أعظم من أن يتجاهلها وعي انسان يرى موقف الثقافتين وسلوك ممثليهما بإزاء الشعب العربي في فلسطين او لبنان وازاء الشعب الأفريقي الأسود في جنوب افريقيا ، وازاء شعوب العالم الثالث بشكل عام .

إن استجابة شعب مصر لجهود التطبيع مع اسرائيل كانت جدّ محدودة ، وهي اليوم اكثر محدودية من أي وقت مضى . . لا لأن ما جرى ويجري في الضفة الغربية وفي لبنان قد فتح الأذهان والعيون فحسب ، ولا لأن حادث المصنة قد أسدل الستار على مرحلة فحسب ، وانما لأن الثقافة العربية بطبيعة جذورها العميقة تتناقض أساسياً مع الثقافة الصهيونية العنصرية القائمة على اساس احتقار غير اليهودي ، ويستحيل التوفيق بينهما .

ومع ذلك فالخطر قائم ، فالانتهازيون والطفيليون ، وهم أقلية في هذا المجتمع ، قد استطاعوا بالتعاون مع الشريك الأمريكي أن يفرضوا علينا نظاماً اقتصادياً وسياسياً يمثل مصالحه ومصالح شركائهم . وهم أنفسهم أصحاب المصلحة في الترويج لبضاعة التطبيع ، لأنهم يرون مستقبلهم قائماً عن هذه الشراكة الثلاثية العربية ـ الاسرائيلية ـ الأميركية ، وهم الذين سارعوا لفتح مكاتب التوكيلات للأنشطة الاسرائيلية .

ان جماعات الطفيليين وتجار العملة ، واصحاب مكاتب الاستيراد والتجارة هم شريحة اجتماعية قليلة العدد بلا سند شعبي ، ولذلك يبقى سندهم في الاقتصاد والسلطة متمثلاً في السند الاستعماري الخارجي ، ومن هنا تبقى قضية النضال ضد التطبيع وقضية النضال ضد زحف النفوذ الأمريكي ، وقضية النضال ضد سيطرة الطفيليين وجوهاً مختلفة لعملة واحدة .

وعلينا ان نتأكد ان هذه الحقيقة قد وصلت الى أعماق ضمائر الناس في مصر ، قبل ان نتوقع انفراجاً وتحولاً الى الأفضل في مسيرة شعب مصر ، بل في مسيرة شعوب الأمة العربية باسرها .